الدكتور محمد عمارة

الإسلام في عيون غربية

بين افتراء الجهـــلاء .. وإنصـــاف العلمـــاء

دار الشروق

تمهيد

الإسلام: الدين .. والأمة .. والدولة .. والحضارة.

الإسلام : دين التوحيد . . توحيد الله، سبحانه وتعالى ، فى الألوهية . . والربوبية . . والذات . . والصفات . . والأفعال . . حتى أنه قد بلغ فى هذا التصور التوحيدى قمة التنزيه والتجريد، اللذين لا تستطيع اللغة البشرية التعبير عن حقيقة كنههما . . وإنما - فقط - تضرب لهما الأمثال التى تقربهما إلى التصورات . . فخلاصة الإسلام، والإخلاص للإسلام، هو التوحيد الذى جاءت به سورة الإخلاص : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤) . .

والله، سبحانه وتعالى، فى التصور الإسلامى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى: ١١) . . وبعبارة فلاسفة الإسلام: «فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك»! . .

وعلى حين ترى مذاهب وفلسفات أخرى أن لله صورة، وأنه قد خلق آدم على صورته - أى على صورة الله - فإن الإسلام العقيدة - ومعه العربية اللغة - وهى لغة كتابه وشريعته - يفسر هذه المأثورة - «لقد خلق الله آدم على صورته» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد - بأن الله قد خلق آدم - عليه السلام - على صورته، - أى صورة آدم، إذ الضمير، فى «صورته» يعود إلى أقرب مذكور، فسبحان الله وتنزه عن التصور والصُّور والتصوير.

* * *

• وشريعة الإسلام: هى الدرجة العليا والأخيرة والخاتمة فى سلم شرائع النبوات والرسالات، التى توالت - فى إطار دين الله الواحد - من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام . . لذلك، جاءت هذه الشريعة الإسلامية مصدقة ومستوعبة لما بين يديها، ولما سبقها من النبوات والرسالات والكتب والصحائف والألواح . . مصدقة فى ثوابت عقائد الدين الإلهى الواحد وقيمه . . ومهيمنة على تلك الشرائع، بالتصحيح لما حدث فيها من التحريف والتغيير والتبديل . . وبالتذكير لما وقع فيها من النسيان . . وبالتجديد والإضافة فيما تجاوزه التطور الزمانى والتغير المكانى والتبدل فى الأعراف . . كما جاءت هذه الشريعة الإسلامية الخاتمة بالانتقال بنطاق التشريع الإلهى من المحلية إلى العالمية . . ومن التوقيت إلى الخلود . . ومن مجرد «الدعوة الدينية» إلى «المنهاج الشامل» للدين والدولة والأمة والحضارة والاجتماع . . وذلك حتى تحرس الدولة الدين، ويسوس الدين الدولة . . فلم تقف هذه الشريعة - فقط عند مملكة السماء - خارج هذا العالم - وإنما شملت الدنيا مع الآخرة، والفرد مع المجموع، والآخر مع الذات . . ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وإذا كانت آيات العالمية فى القرآن الكريم قد نزلت فى المرحلة المكية، قبل الهجرة والدولة ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٤). ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . . فإن هذه العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين أهل الشرائع الإلهية السابقة قد أخذت طريقها إلى «التنظير» و«التقنين» و«التطبيق» منذ اللحظات الأولى للعلاقات التى قامت بين الأمة الإسلامية ودعوتها ودولتها وبين أهل تلك الشرائع والديانات.

□ ففى دولة المدينة المنورة، ومنذ العام الأول لقيامها سنة ١ هـ ٦٢٢ م - نص «دستورها» - الذى اشتهر بـ «الصحيفة» و«الكتاب» - على: أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. **ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة**

مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصر عليهم .. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»[1].

□ وفى أول لقاء مع النصرانية - سنة ٧ هـ ٦٢٨ م - السنة التى بدأت فيها العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية - خاطب الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق . هـ - ٢٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠ م] «المقوقس» - عظيم القبط فى مصر - محددا علاقة الإسلام بما سبقه من شرائع ورسالات . . فقال - «للمقوقس» - : «إن لك دينا - [أى النصرانية] - **لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..»**[2].

فلما استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى «نجران» - فى المدينة سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١ م - فتح لهم باب مسجد النبوة . فصلوا فيه صلاتهم لعيد الفصح . . وقنن لهم - فى العهد الذى كتبه لهم - علاقة الشريعة الإسلامية ودولتها بالشريعة النصرانية والمتدينين بها ، وهى علاقة «المواطنة» الكاملة فى ظل الدولة الإسلامية والمرجعية الدينية والأمة الواحدة . . صنع ذلك رسول الله ﷺ ، عندما كتب لهم : «**لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم .. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملّتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم .. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم**»[3].

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ جمعها وحققها : د. محمد حميد الله الحيدر آبادى - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

(٢) ابن عبد الحكم : [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ . طبعة ليدن سنة ١٩٢٠ م.

(٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ - ١٢٨ .

فقرر الإسلام وقنّن ـ منذ ذلك التاريخ ـ كامل حقوق المواطنة، انطلاقا من الدين، وعلى أساس من العقيدة الإسلامية ـ وليس على أنقاض الدين والاعتقاد الدينى ـ كما هو حال «المواطنة» فى حضارات أخرى!.

* * *

● والإسلام: هو الدين القيّم.. ودين القيَم: أى الدين المستقيم، والمقوِّم لأمور الناس ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم: ٤٣). ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١).

وهو دين القَيِّمة.. أى دين الأمة التى تسلك سبيل العدل والاستقامة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).. فمساحة القيم والأخلاق فى شريعة الإسلام هى مصدر القانون والمعيار لإسلامية هذا القانون.

* * *

● والإسلام: دين البيّنة، التى تبيّن الشىء وتوضحه، حسيا كان هذا الشىء أو عقليا.. ولقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثلثمائة وسبعة وخمسين موضعا: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢). ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام: ١٥٧).

* * *

● والإسلام: دين البرهان، أى الحجة الفاصلة البينة.. يقيم البرهان على عقائده وحقائقه.. ويدعو الآخرين إلى البرهنة على ما لديهم من مقولات

وتصورات: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧). ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١). ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٤). ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص: ٧٥). ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٥٩ ـ ٦٤).

* * *

● والإسلام: علم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

والله ـ في الإسلام ـ هو: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التوبة: ٩٤): وأولوا العلم،

فى الإسلام، هم ـ مع الله والملائكة ـ القائمون بالقسط: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾(آل عمران: ١٨). وهم الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الإبداع الإلهى والقدرة الإلهية فى الكون ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

لذلك، فإن الإسلام إذا حاكم واحتكم إنما يحاكم إلى العلم وإليه يحتكم: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٣). ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨). ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤).

* * *

● والإسلام: نور واستنارة وتنوير إيمانى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥). ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

والله ـ فى الإسلام ـ نور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ (النور: ٣٥). والقرآن نور: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨). وكذلك «الحكمة» ـ التى هى الصواب العقلى ـ هى الأخرى نور. وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة» ـ روه الإمام مالك فى [الموطأ] ـ. ورسول الله ﷺ، نور: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

* * *

● والعدل ـ فى الإسلام ـ اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى [١].

(١) الغزالى ـ أبو حامد ـ: [المقصدالأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ص ٦٠ ـ ٦٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

والله، سبحانه وتعالى يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرّم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ (يونس: ٤٤). ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩). ولذلك، كان العدل هو الروح السارية فى الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. فلقد حرم الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه، ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

ولقد أوجب الإسلام العدل فى كل المعاملات والعلاقات، حتى مع من نكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) وحتى مع من يُقاتلنا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠). ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية والتكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس على مزاج يتغير أو خُلق يتبدل.. فالتنوع والاختلاف - أى وجود الآخرين - هو سنة من سنن الله فى كل عوالم المخلوقات.. والواحدية والأحدية هى فقط، للذات الإلهية، ومن عداه وما عداه - فى عوالم الإنسان.. والأفكار.. والشرائع والملل.. والمناهج والثقافات والحضارات.. والألسنة واللغات والقوميات.. والأجناس والألوان.. والشعوب والقبائل - بل وفى النبات والحيوان والجماد.. هذا التنوع والتمايز والاختلاف فى جميع هذه العوالم سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. والتعارف - المؤسس على التعايش والتعاون والتحاور - هو المقصد الأسمى لهؤلاء

الفرقاء المختلفين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣٠).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم : ٢٢). ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: ٤٨). ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨-١١٩). . أى وللتنوع والاختلاف والتمايز خلقهم . . وفى هذا التنوع والاختلاف الحافز على التسابق فى طريق الخيرات بين المختلفين ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٤٨).

وإذا كان الإسلام قد اعترف بكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع التى توالت على طريق علاقة السماء بالإنسان، عبر التاريخ الطويل للنبوات والرسالات ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ٢٨٥). . وتجاوز - بذلك - مجرد الاعتراف بالآخر إلى حيث جعل هذا «الآخر» جزءا من «الذات»، عندما قرر أن تنوع الشرائع السماوية إنما هو تمايز فى إطار وحدة دين الله . . فلكل أمة شرعة، أما الدين فواحد . . والأنبياء - ومن ثم أممهم - إخوة، أمهاتهم - أى شرائعهم - شتى وأبوهم - أى دينهم - واحد . . وفى هذا المعنى وهذه الفلسفة جاء حديث رسول الله ﷺ : «الأنبياء أولاد عَلاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد).

ولهذه الحقيقة - حقيقة نظرة الإسلام هذه إلى «الآخر»، وعلاقته به . . كان العدل الإسلامى الذى حرص دائما على أن يميز بين الفرقاء والفصائل والمذاهب والتيارات والطوائف فى هذا «الآخر»، فلا يعمم ولا يضع الجميع فى «سلة» واحدة

كى لا يظلم بهذا التعميم . . ولذلك ، لا نجد الإسلام ـ مثلا ـ يضع أهل الكتاب جميعهم فى «سلة» واحدة ، فيعمم الحديث عنهم ، إنما نجده يتحدث عن «كثير» من أهل الكتاب . . و«طائفة» من أهل الكتاب . . و«فريقا» من أهل الكتاب . . فهم [ليسوا سواء] . . وإنما [منهم أمة مقتصدة] ومنهم الذين [ساء ما يعملون] . يسلك القرآن الكريم سبيل العدل هذا ، فيميز بين الفرقاء المتمايزين وفق تمايزهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء . . فنقرأ فيه : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران : ١١٣ ـ ١١٦) . ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٩) . ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٢) . ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٩) . ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٥) . ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

فمن أهل الكتاب : [أمة مقتصدة] ومنهم من هم ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . ومنهم من هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىَ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (المائدة : ٨٣) .

وإذا كانوا ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ . . فإن جزاءهم عند الله ليس واحدا . . فالذين كفروا منهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٦). أما ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩).

والمسلمون يدعون كل فرقاء «الآخر» إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤). والجدال معهم يجب أن يكون، ليس فقط بالأسلوب الحسن، وإنما بالأحسن ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦). . فالكلمة السواء هى أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد لله. . والإيمان بالغيب. . والعمل الصالح. . مع التنوع فى الشرائع داخل أصول هذه الكلمة السواء.

ولهذا العدل الإسلامى، لم يعمم القرآن الكريم الحكم بالتحريف على كل ما لدى أهل الكتاب، وإنما نبه على أن فيما لديهم هدى ونور. . فـ ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٦). ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ (المائدة: ٤٧). ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤). ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٣).

هكذا بلغ الإسلام الذروة فى العدل مع كل ألوان أطياف «الآخرين» و«المخالفين».

* * *

● ولأن الإيمان - فى الإسلام وبالإسلام - هو تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، استحال الوصول إلى هذا الإيمان بأى لون من ألوان الإكراه، فكانت القاعدة القرآنية

المحكمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) . . لذلك كان سبيل الإسلام إلى القلوب هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) . . فمن استجاب قلبه كان مؤمنا بالإسلام . . ومن أعرض قلبه، فـ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦) . ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) . . وحسابه فى الآخرة - إلى الله وعلى الله . . أما فى الدنيا، فإن «له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين» .

ولهذه الحقيقة كان انتشار الإسلام سلميا . . بل ودون مؤسسة تبشيرية ترعى وتعمل على هذا الانتشار . . وإذا كانت أغلب بقاع عالم الإسلام وأكثر شعوب الأمة الإسلامية عددا لم تجر فيها فتوحات ولا حروب إسلامية . . فإن كل حروب الإسلام إنما كانت دفاعا عن حرية الاعتقاد، وحرية الضمير، وحرية الاختيار، وحرية الوطن الذى يعيش فيه المسلمون . . فكل غزوات عهد النبوة إنما كانت ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى دينهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩ - ٤٠) .

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٧ - ٩) .

فلم يعرف الإسلام «حروبا دينية»، لقهر المخالفين على الإيمان به . . وكل ضحايا

غزوات عهد النبوة من الجانبين - شهداء المسلمين وقتلى المشركين - هم، على سبيل الحصر ٣٨٦ قتيلا!! - ١٨٣ هم جملة شهداء المسلمين.. و٢٠٣ هم جملة قتلى المشركين [١]. بينما ضحايا «الحروب الدينية»، داخل النصرانية - بين الكاثوليك والبروتستانت - قد بلغت عشرة ملايين - وفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] - أى ٤٠ ٪ من شعوب وسط أوربا أبيدوا فى هذه الحروب الدينية التى امتدت نحو قرنين من الزمان!.

أما كل معارك الفتوحات الإسلامية، فى القرن الهجرى الأول، فإنها كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التى قهرت الشرق، سياسيا وحضاريا ودينيا وثقافيا، لأكثر من عشرة قرون.. ضد جيوش القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية.. ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد وقف أهل تلك البلاد - وهم على دياناتهم القديمة - مع جيوش الفتح الإسلامى، وشاركوا فى هذه الفتوحات.. ورأوا فيها تحريرا لأوطانهم من القهر الاستعمارى الرومانى.. وتحريرا لضمائرهم وعقائدهم من القهر الدينى والحضارى.. بل ورأوها إنقاذا إلهيا لهم - على يد المسلمين - وعقابا إلهيا للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوس» - وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامى لمصر فقال: «**إن الله الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردَّهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر، وكان «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١] حزينا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات. وكان عمرو بن العاص يقوي كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام**»[٢].

---

(١) ابن عبد البر: [الدرر فى اختصار المغازى والسير]. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) يوحنا النقيوسى: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.

وشهد بذلك أيضا الأسقف «ميخائيل السريانى»، فقال: «**لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نُهبت، ولهذا،فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام**»[1].

فالفتوحات الإسلامية كانت تحريرا لأوطان الشرق من الاستعمار والاستعباد والاستغلال الرومانى. . وكانت «إنقاذا» لنصارى الشرق ونصرا نيتهم من القهر الرومانى . . حررت الأرض . . وحررت ضمائر الشعوب، ثم تركتهم وما يدينون فى «سلام». . فكانت نصرانية الشرق ـ بهذه الفتوحات ـ «هبة الإسلام»!

* * *

● ولأن الإسلام «دين» و«دولة» و«حضارة» فلقد فجر، منذ ظهوره «الإبداع الحضارى» مع هدايته القلوب إلى «الإيمان بالله».

فبينما اقترن انتشار النصرانية فى أوربا ـ فى القرن الرابع الميلادى ـ ببدايات العصور الأوربية الوسطى والمظلمة، التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى، وامتدت عشرة قرون . . حتي أن أوربا النصرانية لم تعرف أول فلكى فى تاريخها «كوبر نيكوس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣ م] ـ إلا فى القرن السادس عشر . . وكتابه الذى كتبه عن [دوران الأفلاك] سنة ١٥٣٠م، لم يطبع إلا بعد وفاته . . وظل مصادرا من قبل الكنيسة حتى القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٨م!!.

بينما حدث هذا لأوربا المسيحية، فجرّ الإسلام ـ منذ ظهوره ـ الإبداع الحضارى، فى علوم التمدن المدنى مع علوم العقيدة والشريعة والتفسير والحديث.

إن أوربا المسيحية قد تخلفت عن العلوم المدنية والطبيعية عشرة قرون، فى ظل

---

(١) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى]ص ٦٢ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.

نصرانيتها، بينما فجر الدين الإسلامى الإبداع الحضارى فى العلوم المدنية والطبيعية منذ القرن الهجرى الأول. . ولقد وقفت خلف هذا الامتياز والتميز الإسلامي أسباب عديدة . . فى مقدمتها:

● تميز النظرة الإسلامية «للطبيعة» و«العالم» عن النظرة المسيحية لهذه «الطبيعة» وهذا «العالم» . . فالطبيعة والعالم - فى النظرة الكنسية - «مدنَّس»، فى مقابل اللاهوت «المقدس»، ومملكة هذا اللاهوت الكنسى أشرف من أن تتحقق فى هذا العالم «المدنَّس» . . لذلك، كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية والتجريبية عملا شيطانيا، لأنه طلب للعلم خارج «المقدس» - الإنجيل واللاهوت - وكانت «التجارب» فى ظل هذا اللاهوت الكنسى - كالعمل اليدوى - فى ظل الفكر الإغريقى - مما لا يليق بالأحرار والأشراف . . وإنما هى من عمل العبيد الأرقاء!.

ومن هنا كان اضطهاد الكنيسة لكل الذين اشتغلوا بالعلم التجريبى. . وكانت انتصارات هذه العلوم الطبيعية التجريبية - فى النهضة الأوربية - على أنقاض سلطان الكنيسة وسلطان رجال الدين، وفى ظلال العلمانية، التى استبدلت «الدين الطبيعى» «بالدين الإلهى»، وجعلت العالم والطبيعة المصدر الوحيد للمعرفة، بل وألّهت الطبيعة، وأحلتها محل الله، وجعلت مملكتها فى هذا العالم وحده، منكرة عالم الغيب ومملكة السماء.

هكذا تأخر العلم الطبيعى - فى أوربا المسيحية - حتى استردت العلمانية «الشرف» للطبيعة، فى ثورتها على اللاهوت!.

- أما الإسلام - الذى اقترن فيه «الإيمان» «بالعمل» - فإنه قد رأى ويرى فى هذه «الطبيعة» خليقة مخلوقة لله سبحانه وتعالى، مثلها فى ذلك مثل الإنسان، وكل عوالم المخلوقات . . فلها - ككل المخلوقات - شرف الخلق الإلهى. . بل إن هذه الطبيعة - فى الرؤية الأسلامية - حية مؤمنة بخالقها، وهى تسبحه كما نسبحه، حتى وإن لم نفقه نحن تسبيحها! . . إن لها شرف الخلق الإلهى - حتى أن الإمام محمد

عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كان يؤثر أن يسميها «الخليقة»، بدلا من «الطبيعة» ولها شرف الخطاب الإلهى لها . . بل وعرض الأمانة عليها . . ولها ـ كذلك ـ شرف العبادة والتسبيح لله! . .

ـ ثم إن هذه الطبيعة ـ الخليقة ـ قد سخرها الله سبحانه وتعالى، بكل قواها وطاقاتها، لخدمة الإنسان، فغدا عمرانها التحقيق للأمانة التى حملها الإنسان، كخليفة لله، سبحانه وتعالى . . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢ـ٣٤). فالبحث فى هذه الطبيعة التى خلقها الله . . وخاطبها . . وسخرها للإنسان . . والنظر فى سننها، والاكتشاف لأسرارها، عبادة لله، وقيام بالفريضة الإلهية التى كانت أولى فرائض الإسلام ـ فريضة القراءة لآيات الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ١ـ ٥).

فالقراءة هنا قراءتان: قراءة لآيات الله الكونية والطبيعية ـ المودعة فى الطبيعة ـ وقراءة لأيات الله المنزلة . . أى قراءة فى كتاب الله المنظور . . وقراءة فى كتاب الله المسطور.

بل إن القرآن قد جعل البحث والتجريب والاكتشاف لأسرار الله فى الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجريبية، فى مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الدينى، والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعية هم الأكثر خشية لله، سبحانه وتعالى. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧ـ٢٨).

على حين كان المشتغلون بهذه العلوم الطبيعية والتجريبية - بنظر الكنيسة الأوربية - هم المارقون والملاحدة، الذين تركوا البحث فى «المقدس» - اللاهوت - واشتغلوا بالتجريب فى «المدنَّس» - الطبيعة وعلومها - !! .

لهذه الحقائق، التى ما يزت بين الإسلام وبين نصرانية الكنيسة الأوربية، عاشت أوربا المسيحية عشرة قرون مظلمة - بدأت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م - الذى تزامن مع انتشار المسيحية فى أوربا - وامتدت حتى اكتشاف «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١-١٥٠٦م] لأمريكا سنة ١٤٩٢م . . وبدء الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] فى القرن السادس عشر الميلادى .

أما الإسلام، فإنه - لتميزه . . ولتميز موقفه من الطبيعة - ولأنه دين ودولة وحضارة قد سلك طريقا آخر . . اقترن فيه الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية والمدنية بالإبداع فى العلوم الشرعية . . وكانت فيه الطبيعة وعلومها وآيات الإبداع فيها هى السبيل إلى معرفة الله وعظمته وقدرته وهى السبيل إلى خشيته . . بينما أدى الغلو العلمانى - الذى جاء رد فعل للغلو الكنسى إزاء الطبيعة إلى أن صاح الذين أحلوا العلم الطبيعى محل الله، صيحتهم المنكرة التي قالوا فيها «لقد مات الله» !! .

لقد برئ الإسلام من غلو احتقار الطبيعة . . ومن غلو تأليه الطبيعة . . حتى لقد رأينا الإبداع فى العلوم الشرعية والإلهية يجاور ويزامل الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية، ليس فقط فى المجتمع الإسلامى، وإنما فى عقل العالم المسلم، وفى المشروع الفكرى لكثير من علماء الإسلام . . فلم نعرف علماء للعلوم الشرعية . . وآخرين للعلوم الطبيعية . . وإنما وجدنا تجسد هذه النظرة الإسلامية الجامعة بين عالم الغيب وعالم الشهادة . . بين قراءة آيات الله المسطورة فى كتاب الوحى وقراءة آيات الله المنظورة والمبثوثة فى الأنفس والآفاق . . وجدنا تجسد هذه النظرة الجامعة فى المشاريع الفكرية لكثير من علماء الإسلام الذين جمعوا - فى ثقافتهم - بين «الشرعى» و«المدنى» فى المعارف والعلوم . . فكانوا «تجريبيين - مؤمنين» . .

و«روحانيين ـ ماديين»، لأن الدين ـ فى حضارتهم ـ : وضع إلهى يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون، ولإقامة دولته فى هذا العالم الطبيعى، مستعينا فى أداء أمانة الاستخلاف بكتابى «الوحى» و«الوجود».

ومن هؤلاء العلماء، الذين امتزجت فى إبداعاتهم العلوم الإلهية بالعلوم الطبيعية:

● أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه فى «الفقة» كما يفزعون إلى فتواه فى «الطب».. فهو الطبيب المجرب.. والفقيه الأصولى المتكلم.. والحكيم.. إنه صاحب [كتاب الكليات] ـ فى الطب ـ و[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] ـ فى الفقه ـ و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] و[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ـ فى علم الكلام والتوحيد ـ..

● وابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م] الذى كان «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدنى».. فى «الإلهيات» و«الطبيعيات». فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة».. فمن آثاره فى الطب: [القانون].. وفى الحكمة والإلهيات: [الشفاء] و[المعاد] و[أسرار الحكمة المشرقية].. وفى التجريب والطبيعة: [النبات والحيوان] و[الهيئة] و[أسباب الرعد والبرق].. إلخ.

● والبغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر [٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م] الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين.. والمبرزة فى الحساب.. وفى الهندسة.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدَرّس فى سبعة عشر فنا!. ومن آثاره: [أصول الدين] و[تفسير القرآن] و[معيار النظر] و[التكملة فى الحساب] و[رسالة فى الهندسة].. إلخ.

● والخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم [٥١٥ هـ ١١٢١ م] اللغوى.. والشاعر.. والفيلسوف.. والمؤرخ.. والرياضى.. والفقية.. والمهندس.. والفلكى!

. . ولقد بقيت لنا من آثاره: [مقالة فى الجبر والمقابلة] و[شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس] و[الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما] و[الرباعيات] و[الخلق والتكليف]. . وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، وتكامل الإبداع فيها. .

● والفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر [٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م] الذى كان الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعا . . حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول. . والمنقول. . وعلوم الأوائل». . ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: [مفاتيح الغيب] ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و[معالم أصول الدين] و[لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات] و[الخلق والبعث] ـ فى التوحيد وأصول الدين. . و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين] و[نهاية العقول] و[البيان والبرهان] ـ فى الفلسفة ـ . . و[المباحث المشرقية] ـ فى التصوف ـ . . و[السر المكتوم] ـ فى الفلك ـ . . و[النبوات] ـ فى النبوة والرسالة ـ . . و[النفس] ـ فى علم النفس ـ . . كما أبدع فى الهندسة [كتاب الهندسة] و[كتاب مصادرات إقليدس]. . إلخ.

هكذا تكامل وتزامل وامتزج «الشرعى» و«المدنى» . . «الإلهى» و«الطبيعى» . . «الروحى» و«المادى» . . و«المنقول» و«المعقول» فى الإبداع الإسلامى، دونما تناقض، كذلك الذى رأيناه فى أوربا النصرانية ذلك أن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان أن المقاصد من خلق الله له، هى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). لكنه لم يحصر العبادة فى الشعائر وفى المحاريب. . بل لقد رأيناه يجعل الأرض والطبيعة كلها محرابا ومسجدا. . !!. ورأيناه قد جعل عمران الكون وصلاح الدنيا ـ بالمعارف والعلوم الكونية والشرعية ـ من أفضل العبادات. . فالدنيا والطبيعة ليست «دنسا»، مقابلا للدين «المقدس» وإنما هى خلق الله، الذى يسبحه، والذى يتوقف «صلاح الدين» على صلاحه، لأن معارف الدنيا والأمن فيها هما شرط صحة العبادات وصلاح الدين . .